﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [يونس: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذكر الفرضيّات إلى تقرير الحقائق الواقعيّات

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبلها وجهان:

أحدهما: أنَّ الله تعالى لَمّا ذكر أنَّ كلَّ نفسٍ كافرة، لو تملك ما في الأرض؛ لافتدتْ به بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]؛ فبيَّن أنَّها لا تستطيع ذلك؛ لعدم مُلْكِها، فليس لها شيءٌ تفتدي به؛ فإنَّ كلَّ الأشياء ملكٌ لله تعالى، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[1]، فهو انتقالٌ من بيانِ الفرضيّات إلى بيان الواقعيّات، بقصدِ تجلية المعاني، ومعرفةِ الدلائل، والخضوع للحقائق.

والآخر: لَمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنَّهم قالوا: أحقٌّ هو؟ وأمرَ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يقول: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾، وهذا جارٍ مجرى الإقناعيّات؛ أتْبعهُ بما هو البرهان القاطع على صحَّته وتقريره، وهو أنَّ القول بالنُّبوَّة والقول بصحَّة المعاد يتفرَّعان على إثبات الإله القادر الحكيم، وأنَّ كلَّ ما سواه؛ فهو ملكه، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَ﴾: الواو والعين والدال: كلمة صحيحة تدلُّ على ترجيةٍ بقول، يُقال: وَعَدْتُه أَعِدُه وَعْدًا، ويُستعمل في الخير والشرِّ، ويُعدّى بنفسه وبالباء، فيقال: وَعَدَهُ الخيرَ، وبالخيرِ، وغلب الوعد في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/266، الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 806.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/266.

الخير، والإيعادُ في الشرِّ، والوعيد لا يكون إلّا بِشَرٍّ[1]، ووعده الأمر: قال له: إنَّه يُجريه له، أو ينيله إيّاه، ووعده بالخير: منّاه به، وبالشَّرِّ: هدَّدَه به، والموعد: العهد[2].

ومعنى ﴿وَعۡدَ﴾ في الآية: يتضمَّن الأمرين، أي: في كلِّ وعد ووعيد عذابٌ أو رحمة؛ إذ هو وعدٌ بالقيامة، وجزاء العباد إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، فإنَّ ما وعد الله تعالى به - على ألسنة رسله - أنَّه سيُجريه، فهو حقٌّ كائنٌ لا محالة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مالكُ كلِّ شيءٍ هو المحقُّ في الوعدِ والعدْلُ في الحُكمِ

ألا إنَّ لله ملكَ كلِّ ما في السّماوات وكلِّ ما في الأرض، لا شيء فيه لأحدٍ سواه، فليس لهذا الكافر بالله يومئذٍ شيءٌ يملكه، فيفتدي به من عذاب ربِّه، وإنَّما الأشياء كلُّها للذي إليه الحساب، وقد حقَّ جميع ما وعد به سبحانه، وأوَّلُه عذابه الذي أوعد به هؤلاء المشركين، فلا عليهم ألّا يستعجلوا به، فإنَّه بهم واقعٌ لا شكَّ، ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوع ذلك بهم، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ حرفِ التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾:

إعلامٌ بأنَّ لهُ الملكَ كلَّه، وأنَّ كلَّ الأسبابِ تتفاعلُ بعطاءٍ وتقديرٍ منه

في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ صدِّرت الجملةُ بحرف التَّنبيه والتحقيق ﴿أَلَآ﴾ الذي يُفتتح به الكلام؛ "للاعتناء بما بعدها"[5]، ولتنبيهِ الغافلين عن هذه الحقيقةِ والقضيَّة الكبرى، وحضِّهم على التذكُّر والاعتبار والعودة إلى طريق الحقِّ[6]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (وعد).
(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/53، والراغب، المفردات، ص: 875، والمراغي، تفسير المراغي: 11/114.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.
(5) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 806.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.

والتأكيد على استماعها، وإنْ كانوا يعرفونها؛ لكثرة ذهولِ النّاس عن تذكُّر أمثالها[1]، وهذه الحقيقة والقضيَّة الكبرى هي أنَّه سبحانه أَمَرَ الأسباب أنْ تخضعَ لمسبِّباتِ عمل العامل؛ فكلُّ من يأتي بالأسباب، فهي تعطيه، سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا، فالذي نَسِيَ مسبِّبَ الأسباب، وارتبط بالأسباب مباشرة، ينال العذاب، فالحقُّ ينبِّههم، أي: تنبَّهوا أيُّها الجاهلون، وافهموا هذه القضيَّة الكبرى: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وإيّاكم أنْ تغترّوا بالأسباب، أو أنَّكم بأسبابكم أخذتم غير ما يريدُهُ الله لكم، فهو سبحانه الذي أعطاكم، وقدَّر لكم، وكلُّ الأسباب تتفاعل لكم بعطاءٍ وتقديرٍ من الله ﷻ[2].

بلاغةُ التَّوكيدِ في: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

التَّوكيدُ تقريرٌ لقدرتِهِ تعالى على الإثابةِ والعقابِ

أكَّد البيانُ الإلهيُّ الخبر في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ بعد حرف التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾؛ للردِّ على المشركين؛ لأنَّهم لَمّا جعلوا لله شركاء؛ فقد جعلوها غيرَ مملوكةٍ له[3]، ولأنَّه لَمّا كان السَّببُ الحاملُ لملوكِ الدُّنيا على الكذبِ والجَوْرِ والظُّلم؛ العجزَ، أو طلبَ التزيُّد في المُلك، أشار إلى تنزُّهه عن ذلك بقولٍ مؤكَّدٍ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ سَوقًا لهم مَساقَ المُنْكِر؛ لأنَّ فعلَهم في عبادة الأصنام فعلُ من ينكر مضمون الكلام[4].

معنى اللّام الدّاخلة: ﴿لِلَّهِ﴾:

الحَكَمُ العدْلُ من لَهُ الملكُ كلُّه

(اللام) في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للملك، أي: لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأَرض؛ فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده"[5]، والحاصل: أنَّه لا يظلم إلّا ناقص المُلك، وأمّا من له الملك كلُّه؛ فهو الحكم العدل؛ لأنَّ جميع

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/327.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/219، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5994.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/353.

الأشياء بالنسبة إليه على حدٍّ سواء، فذكرُ الملك له دون سواه تأكيدٌ لعدلِه تعالى.

غرضُ تقديم ﴿لِلَّهِ﴾:

قدَّم البيان القرآنيُّ خبر إنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ على اسمها ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ للاهتمام باسمه تعالى، ولإفادة القصر؛ لردِّ اعتقادهم الشركة[1]، أي: ألا إنَّ لله وحده لا لغيره ملكَ ما في السّماوات وما في الأرض من مخلوقات[2]، فغرضُ التقديم إفادةُ القصر بقصد قلب اعتقاد أن يُشارِكَ الله أحدٌ في ملكه، أو تنزيل أحد منزلةَ من يُشارك الله في ملكه.

اختصاصُ الله بالملك يقتضي اختصاصَه بالحكم والجزاء

دلالةُ استعمالِ الاسم الموصولِ ﴿مَا﴾:

الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مفيدٌ لعموم كلِّ ما ثبتتْ له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفيَّة[3]، أي: لله كلُّ ما وُجِد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكِّنًا فيهما، فكلمة ﴿مَا﴾ أعمُّ وأشمل من (مَن)، وهي لتغليب غير العقلاء على العقلاء، وخاصَّة أنَّ الآية التي قبلها تتحدَّث عن الافتداء بالمال ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾، وفي هذا تقريرٌ لكمالِ قدرته سبحانه على جميع الأشياء، وبيانٌ لاندراج الكلِّ تحت ملكوته يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا، وإثابة وعقابًا[4].

جميعُ الأشياء تندرجُ تحت ملكوتِه سبحانه يتصرَّفُ فيها كيفما يشاء

توجيهُ المتشابه اللفظي:

جاء التَّشابه اللفظي بين قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وقوله تعالى بعد عشر آيات: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

الله مالكُ كلِّ شيءٍ، وما سواه فملكه مجازيٌّ افتراضيٌّ مؤقَّت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [يونس: 66] فعبَّر القرآن في الآية الأولى بـ﴿مَا﴾ وفي الثانية بـ﴿مَن﴾؛ وسبيل الكشف عن ذلك السياقِ، لاسيَّما السابق، فالآية الأولى جاءتْ بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]، وكان المعنى: أنَّ النَّفس الظالمة إذا رأتْ عذابَ الله تعالى لو ملكتْ جميع ما في الأرض؛ لبذلته في فداء نفسها، وهي تحرصُ على اليسير من حطامها في ظلم أهلها، فأتْبعَ ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: إنَّ النَّفس الظالمة لا تملكُ ما في الأرض لتفتديَ به، ولو ملكته لَما قُبِل في فدائها، وكيف يكونُ لها ذلك، واللّه تعالى مالكُ ما في السّماوات والأرض، وليس للعبدِ ذلك، ولا محلُّه هنالك؟ فناسب لهذا الموضع: ﴿مَا﴾ التي هي أعمُّ وأشمل من ﴿مَن﴾ إذ ﴿مَا﴾ تُستعمل لصفاتِ العقلاء، وذواتِ غير العاقل بخلاف ﴿مَن﴾، فهي تُستعمل لذواتِ العقلاء، وأولي العلم فقط.

وهذا في حملِها على التغليب، أي: تغليب ما لا يعقل على ما يعقل، أمّا إذا حملناها على خصوص ما لا يعقل؛ فيكون المقصود بيانَ أنَّ هذه الأنفس الظّالمة ليس لها أن تملك أصحاب العقول، لا في الدُّنيا، ولا على سبيل الفرض في الآخرة.

وأمّا الموضع الذي ذُكر فيه ﴿مَن﴾؛ فلا يصحُّ فيها غيرها؛ لأنَّ قبله هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾ [يونس: 65]، والمعنى: لا يحزنك ما يتوعَّدك به الكفّار من القتل وأنواع المكروه؛ فإنَّ العزة للّه تعالى، ولا يمنحُ الكفّار قدرة على ما يريدونه منك، بل يعطيك القدرة والغلبة عليهم، فإنَّه يملك من في السّماوات ومن في الأرض، ولا قوَّة لهم إلّا به، ولا قدرة لهم إلّا من عنده، فاقتضى هذا الموضع اختيارَ لفظ: ﴿مَن﴾[1].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بحرفِ الظرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ للإشارة إلى تغلغلِ ملكه وسلطانه في كلِّ السّماوات والأرض، فلهُ الملك كلُّه، ما ظهر منه وما بطن، وذكر حرفَ الظَّرفيَّة للتَّنبيه على ملكه للظّاهر بالخفيِّ، فإنَّ ما في السّماوات والأرض لا يظهر،

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/743 - 745، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 141، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 248.

كما هو الذي على الأرض، فنبَّه بما خفي فيها على الظّاهر فوقها؛ لبيانِ قدرته ﷻ على الحكم على مملوكاته كلِّها.

التَّنبيهُ على ملكه سبحانه بالخفيِّ على الظّاهر لبيانِ التَّمكُّن والاقتدار

غرضُ تقديمِ السّماوات على الأرض:

قدَّم البيان الإلهيُّ السّماوات على الأرض في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لأمور:

البدءُ بالأسبقِ وجودًا والأعظم حالًا والأعلى حسًّا

الأول: مراعاة السَّبق الوجوديِّ؛ إذ السّماوات خُلقت قبل الأرض.

الثّاني: علو السّماوات معنًى وحسًّا وعظمتها[1]، فتقديمها أنسبُ في سياق كمال ملكه سبحانه.

الثالث: لكونِ ملكه سبحانه لِما في السماء أعجبَ وأدلَّ على كمالِ قدرته سبحانه، فإنَّ "الآيات في السّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوِّها، واستغنائها عن عمد تقلُّها، أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها، وما فيها كقطرة في سعتها؛ ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع النّاظر فيها البصرَ كرَّةً بعد كرَّةٍ، ويتأمَّل استواءَها، واتِّساقها، وبراءتها من الخلل، والفطور، فالآيةُ فيها أعظمُ من الأرض"[2].

نكتةُ عطفِ الأرضِ على السَّماوات بدون إعادة الاسم الموصول:

لما كانَ المقامُ للغنى عن الظُّلمِ لم يُخوَجِ الحالُ إلى التأكيد

لم يكرِّر البيان الإلهيُّ الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ اكتفاءً بذكرها في الآية التي قبلها: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾[3]، أي: أغنى لفظها عن إعادتها مع العلم بالمعنى[4]، وللإشارةِ إلى أنَّ المالكَ الحقيقيَّ لما في الأرضِ على الدّاومِ هو خالقُها ﷻ، دون من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/74.
(3) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 103، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/248.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 205.

يُعبد من الشُّركاءِ، ولبيانِ أنَّ ملكَ السَّماوات مساوٍ لملكِ الأرضِ سواءً بسواء.

وأمّا حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ فلم يُعِدْه البيانُ القرآنيُّ؛ لعدم الحاجة إلى التأكيد؛ لأنَّه "لَمّا كان المقام للغنى عن الظلم لم يُحْوَجِ الحالُ إلى تأكيدٍ بإعادة الجار"[1]؛ إذ لا يَظلمُ إلّا ناقصُ الملك، وأمّا من له الملك كلُّه؛ فهو الحكم العدل.

معنى التَّعريفِ في: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

لا شـيءَ في الأرضِ خارجٌ عن ملكه سبحانه

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تفيدُ العموم، أي: تشمل جنس الأرض، "أي: من جَوهرٍ وعَرَضٍ صامتٍ وناطقٍ، فلا شيءَ خارج عن ملكه يحوجه إلى ظلمٍ، أو إخلافِ وعد"[2].

نكتةُ إعادةِ حرف التَّنبيه:

إعـلامٌ من اللـه حـولَ القضيَّة الكبرى والحقيقةِ الثابتة قضيَّة البعث

أعادَ البيانُ القرآنيُّ حرف التنبيه ﴿أَلَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ قضيَّة أخرى وكبرى؛ لتمييزها بهذا التَّنبيه عن سابقتها، لأنَّها مقصودة بذاتها: إذ إنَّ المشركين كانوا يظنّون أنَّ ما وعدهم به الرسول ﷺ هو من باب الترغيب والترهيب، وليس من باب الحقائق الثابتة[3]، فنبَّههم إلى أنَّه إذا وعدَ الله على لسان رسوله؛ فلا رادَّ لِما وعدَ به؛ لأنَّه منزَّه عن أنْ يخلفَ الميعاد؛ لأنَّ عناصر كلِّ الأحداث من الفاعل والمفعول، والزمان والمكان، والسَّبب تخضع لمشيئته سبحانه ولا تتأبّى عليه؛ ولذا فوعدهُ حقٌّ وثابت[4].

بلاغةُ التَّوكيد في: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾:

مَـنْ شـكَّ في البعثِ؛ شكَّ في أنَّ الله مالكُ كلِّ شيءٍ

أعاد البيان القرآنيُّ تأكيد الخبر بحرف ﴿إِنَّ﴾ بعد حرف

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5995.

التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ للاهتمامِ به، ولردِّ إنكار منكري بعضه، والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر[1]، وللتَّأكيدِ هنا موقعٌ أخّاذ بعد تأكيد أنَّ لله ملك السّماوات والأرض، وهو بيان أنَّ قضية ملك السّماوات والأرض توازي قضيَّة البعث في عقل المشرك، فكلتاهما احتاجت إلى تأكيد، وهو تأكيدٌ يُنبئ عن إيضاحِ حقيقةِ البعث بعد إيضاح حقيقةِ الملك، فمن شكَّ في إحداهما؛ كان في الأخرى شاكًّا.

بلاغة التذييل في الآية:

مَـنْ كـانـتْ هذه شؤونه سبحانه لا يَـعـجـزُ عـن تحقيقِ ما أخبرَ بوقوعه

في الآية تذييلٌ إنهاءٍ للكلام المتعلِّق بصدق الرسول والقرآن، وما جاء به من الوعيد، وترقُّب يوم البعث، ويوم نزول العذاب بالمشركين، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأنَّ مَنْ هذه شؤونه لا يعجزُ عن تحقيق ما أخبر بوقوعه، وافتتح هذا التَّذييل بحرف التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾، وأُعيد فيه حرف التنبيه؛ للتأكيد على استماعه، وللتنبيه على أنَّه كلامٌ جامعٌ هو محصِّلةُ الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفًا[2].

فائدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

الـوعـدُ مـن الـعـظـيـمِ سبحانه وعـدٌ عظيمٌ

في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إظهارُ اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الإتيان بضميره، فلم يقلْ: (إلا إنَّ وعده حق)؛ وذلك لتفخيم شأن الوعد، والإشعار بعلَّة الحكم[3]، ولتكون الجملة مستقلَّة؛ لتجري مجرى المثل، والكلام الجامع[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/198 - 199.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/198 - 199.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الـــواو بـين الـعـاطـفـةِ والاستئنافيَّة والحاليَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تحتمل ثلاثة أوجه ممّا أدّى إلى ثراء المعنى، وهذه الأوجه هي: عاطفة، عطفتْ جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[1]، واستئنافيَّة[2]، أتتْ جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مستقلَّة، لتجري مجرى المثل، والكلام الجامع[3]، وحاليَّة[4]، والمعنى: إنَّ وعد الله حقٌّ، والحال إنَّ أكثرهم لا يعلمون.

بلاغةُ استعمالِ الاستدراكِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

علَّةُ الشَّكِّ انتفاءُ العلمِ، فمن عَلِمَ؛ استيقنَ وفَهِم

وقع الاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لمخالفة المخالفين بعد تأكُّد الخبر من فَمِ الأمين الصادق، ومن الله تعالى، وذلك يوجبُ التصديقَ والإذعان والإيمان[5]، ولأنَّ الجملتين اللتين قبلها أُريد بهما الرَّدُّ على معتقدي خلافهما، فصارتا في قوَّة نفي الشَّكِّ عن مضمونهما، فكأنَّه قيل: لا شكَّ يحقُّ في ذلك، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون، فلذلك يشكون[6]، فعلَّةُ الشَّكِّ هي انتفاءُ العلم.

سرُّ ذكرِ الأكثريَّة: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

الكفّارُ بين جاهلٍ بالحقِّ - وهم الأكثرية - وبين عالمٍ بالحقِّ جاحدٍ لهُ

قيَّد النَّظمُ الإلهيُّ نفي العلم بالأكثر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولكنَّهم لا يعلمون)؛ لأمرين:

الأول: إشارة إلى أنَّ منهم من يعلم ذلك، ولكنَّه يجحده مكابرةً، كما في الآية السابقة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ وقوله سبحانه:

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/272.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/262.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/262.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3593.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ [يونس: 40]، فضمير ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ للمتحدَّث عنهم من الفريقين فيما تقدَّم[1].

الثاني: إنصاف القلَّة المؤمنة التي علمت الحقَّ؛ فاتَّبعته وصدَّقته، ووقفتْ إلى جانب الرسول ﷺ تؤيِّده، وتفتدي دعوته بالنَّفس والمال، هذا إنْ كان الضَّمير (هم) عائدًا على عموم النّاس[2].

ويحتمل أنْ يكونَ المراد بذكر الأكثر الجميع؛ لأنَّ عِظَم الشيء يقومُ مقامَ جميعه، فذِكْرُ الأكثر كذكر الجميع[3].

نكتةُ إيثارِ نفي العلمِ على إثباتِ الجهل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

نـفـيُ الـعـلـمِ وإثـبـات الجهل مضمون متقارب وأثر متباعد

آثر البيانُ الإلهيُّ التعبيرَ بنفي العلم عنهم في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على أنْ يثبتَ لهم الجهل، فلم يقل: (ولكن أكثرهم جاهلون)؛ لأنَّ نفي العلم يحتمل دلالات عدَّة، فهو أوسع دلالةً من إثبات الجهل، فيحتمل أنْ يكون لمعنى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، عدّة أوجه: أوّلًا: لا ينتفعون بعلمهم، فهم محرومون، فنفى عنهم العلم، وإنْ علموا؛ لمّا لم ينتفعوا به، وثانيًا: لم يكتسبوا سببَ العلم – وهو التأويل والنظر في آياته وحججه – لغفلتهم وقصور أنظارهم، وثالثًا: نفي العلم عنهم لما أُعطوا أسباب العلم، فلم يعلموا، فإن كان على هذا؛ فيكونون معذورين، وإن كان على الوجهين قبله؛ فلا عذر لهم في ذلك[4]، ورابعًا: لا يصدِّقون، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون[5].

وكذلك في نفي العلمِ عنهم نوعٌ من استمالتهم، ففرقٌ بين أن يكون الخطابُ في إثبات الجهل لهم، وبين نفي العلم عنهم، فكلاهما حقٌّ، والمضمون متقارب، لكن لمّا كان في اختيارِ الأسلوبِ الألطفِ نوع من الاستمالة؛ كان أدنى للقبولِ، وتحريك الأذهان للتفكير.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 13/164.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/53.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»